صراع الأنساق الثقافية في النّقد العربي المعاصر

-مقاربة معرفية-

د. آمال منصور
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

الملخّص:

تحاول هذه المقالة التأسيس للنقد الثقافي وعرض الحقول المعرفية المرتبطة به غربيا، مثل ثقافة الوسائل والدراسات الثقافية ومدرسة فرانكفورت، كما تسلط الضوء على ارتحال هذا المصطلح عند العرب ، تحديدا عند الناقد السعودي "عبد الله الغذامي" مع بيان مزالق هذا النقد وكذا بؤره المضيئة.

الكلمات المفتاحية:

النسق الثقافي، العيوب الجمالية، النص المركزي والنص الهامشي، الدلالة النسقية.

Résumé :

Le conflit de systèmes culturels dans la critique arabe contemporaine
-approche cognitive-

L'objet de cet article est d'instituer la critique culturelle et d'exposer les différents domaines disciplinaires qui s'y attachent, notamment en Occident, telles quela culture des moyens, les études culturelles et l'école de Francfort. Par ailleurs, cette étude vise aussi de jeter la lumière sur l'usage de ce concept dans les études arabes, particulièrement celles menées par le critique saoudien, Abdallah Ghadhami, tout en mettant en exergue les glissements ainsi que les foyers fonctionnels de la dite critique

Les mots clés : système culturel, défauts esthétique, le texte centrale et le texte marginale, la signifiance culturel.

- **استهلال:**

إذا كانت الثقافة حسب "رايموند ويليامز" هي "اسما يحدّد صيرورة ذاتية داخلية ، تخصّ الحياة النخبوية والفنون، وهي أيضا اسم لصيرورة عامّة، تخصّ تشكلات سبل الحياة ووسائطها، وقياسا على أيّ من الصيرورتين، تملي منظورها على الثقافة، تتغيّر دلالة الثقافة وتوجهها"، فحسب هذا التعريف تصبح الثقافة قاعدة مهمة للمعطى الأدبيّ،

فهي تزوّده بالأنساق البانية والتمثيلات الثقافية، لكنها بوصفها تمثيلات ماكرة he gunning of représentationsT على حدّ تعبير ستيفن غرينبلات STEPHEN GREENBLATT.

يعني هذا أنّ حضور الثقافة في المتن الأدبي يشكل مساءلة مهمة، بل تحديا عريضا، لأنّ هذه التمثيلات قد تلبّست بلبوس الجمالي، و تسرّبت للعقل الجمعي و تحوّلت إلى مسلّمات تغذّي الذّوق.

حسب هذا الطرح يمكن أن يتأسّس نقد يهدف إلى محاورة نصوص التراث و أعراف المؤسّسات الأكاديمية و جميع المتون محاورة واعية يدعى: "نقدا ثقافيا"، مثلما دعا إلى ذلك: غيرتز، ايستهوب، ألتوسير، فوكو، أيزابرجر.

لكن هذا النقد الجديد الذي يسمي نفسه "ثقافيا" أو ما يسمّونه أحيانا باسم "التاريخانية الجديدة" يعتبر أن جميع المعطيات التي تقدّمها المتون الأدبيّة هي أنساق مخاتلة، فهو بالتالي يؤمن بعدم براءتها، لذلك يبدو أن هذا النقد لا يمكن أن يصبح فرعا من فروع النقد النصوصي العام، و من هنا تتولّد إشكالية مداخلتنا: كيف يمكن أن نؤسس لنقد يستند للمعطى الثقافي؟ وهل هذا كاف لقراءة النصوص و بالتحديد الأدبية منها؟ هل ولادة نظرية الأنساق الثقافية تعني بالضرورة إلغاء المنجز النقدي الأدبيّ؟ وهل هو بديل عن النقد الأدبيّ؟

1- ذاكرة المصطلح:

يبدو ليس من السهل التأسيس لمصطلح النقد الثقافي رغم شيوع الحديث عنه في المشهد النقدي العربي المعاصر، ذلك لأنه التبس بمصطلحات عديدة، وصار من الصعب ضبط جينيالوجيته غربيا وعربيا.

ولقد ظل مصطلح النقد الثقافي بعيدا عن التقعيد و التنظير، حتّى أن بعض المعاجم المختصة لا تشير إليه، بل إنّ "ليتش" نفسه الذي ألّف فيه كتابا عام 1992، لم يوله اهتماما في المدخل الموسّع الذي كتبه لـ"الدراسات الثقافية" ضمن المجلّد الذي أصدرته جامعة جونز هوبكز عام 1994.[1]

ظهر هذا النقد بمصطلحات متعددة كالتاريخانية الجديدة new historicism أو الشعرية الثقافية cultural poetics أو المادية الثقافية lismia cultural أو التحليل الثقافي cultural analysis.

يبدو أن ربط مصطلح النقد الثقافي بكل ما له علاقة بالثقافة يجرّ على هذا التوجّه عدّة أسئلة تدخله في متاهات لا حصر لها، هذا لا يعني أنّنا ننفي ارتباط الدراسات الثقافية بالنقد الثقافي إجمالا، و لكنّنا في الوقت نفسه نؤكد على وجود الفرق بين هذه المصطلحات و النقد الثقافي.

لقد بدأت الدراسات الثقافية منذ أن تأسّست "مجموعة بيرمنجهام" تحت اسم bimingham center for comtenporary cultural وحظيت باهتمام بالغ، وكان من أهم أهدافها هو ***"كسر مركزية النص"*** فقد حوّلت الاهتمام من النص الأدبي الراقي الأنيق إلى نصوص مرئية تحظى باهتمام الطبقة البسيطة من المجتمعات. حيث«يتساءل "جوناثان كلر" عمّا يحدث في الحقل النقدي حين يلحظ أساتذة الأدب ينصرفون عن دراسة ملتون إلى دراسة مادونا[2]»

هذه الدراسات تمكنت من تحويل الاهتمام من النصوص الأدبيّة الراقية إلى ما يهمّ عامة الناس، فما كان مركزيا أصبح هامشيا في نظرها والعكس، لكنّنا نعتقد أنّ رغبتها في كسر مركزية النص هي –في الحقيقة– كسر لسلطة المعنى الذي تقدمه المؤسسات الرسمية من دور نشر و دور صحافة و مؤسسات تربوية و ثقافية.

هذه الدعوة التي تبنّتها الدراسات الثقافية كان مبررها«أن الفعل الجماهيري و الثقافي يقع تحت تأثير ما هو غير رسمي، فالأغنية الشّبابية والنكتة والإشاعات و اللغة الرياضية والإعلامية، و الدراما التلفزيونية، وما إلى ذلك، هو ما يؤثّر فعلا أكثر من قصيدة لأدونيس[3] »

مثلا فقد مارست المسلسلات التركية في المجتمعات العربيّة والجزائرية –تحديدا– فعلا واضحا، إنّها غيّرت في نظرته للحياة أكثر من جريدة رسمية لها سمعة وطنية أو رواية لجزائري مشهور، وتأثير هذه المسلسلات مسّ مختلف الشرائح دون استثناء مهما كان شكل التأثير ومداه.

ولكن يمكن أن نشير إلى أن الدراسات الثقافية بنت أطروحاتها على فكرة ***الهيمنة الثقافية*** وهي متأصلة في نظرية الهيمنة لغرامشي«غير أن الدراسات الثقافية توسّع من استخدام نظرية الهيمنة(..) ليشمل العرق والجنس و الجنوسة gender و الدلالة و الإمتاع[4]»

تتولّد عن هذه النظرة فكرة موازية تستكمل جهد مجموعة بيرمنجهام و هي ما يسمى ب***ثقافة الوسائل media culture*** مع "كلنر" حيث يتحدث عن« التفاعل الذي يحدث كنتيجة لتدخل الوسائل في تشكيل أفعال الاستقبال، أي في تصنيع التلقي بحيث تجري عمليات تسليع الثقافة مع دمج الناس في مستوى واحد، و تعميم هذا النموذج مما يحقق تبريرا ايديولوجيا لمصلحة الهيمنة الرأسمالية[5]»

لكن أول ظهور لمصطلح النقد الثقافي كان مع "تيودور أدورنو" في مقالته الشهيرة بعنوان "النقد الثقافي و المجتمع" سنة 1949، و التي أعاد نشرها في كتابه "موشورات" سنة1951.[6]

في مفتتح أطروحته يتجه أدورنو بالنقد للحضارة الغربية، و ما أفرزته إزاء صناعة الثقافة، فيخلص إلى أن النقد الثقافي«مفهوم بورجوازي أنتجه المجتمع الاستهلاكي، و لا بدّ أن نعي حقيقته بوصفه كذلك، فهو يحوّل الثقافة إلى سلعة، و يخضعها لدوائر التشيؤ و التسليح و الاستهلاك[7]»

لكن "أدورنو" في هذا التأسيس المبكر للنقد الثقافي لا يتكلّم بلسان الثقافة الغربيّة، بل يهزأ ممن يمارسون هذا النقد و هو جزء من هذه الحضارة، كما ينتقد مفهوم الحرية و يجعلها مفهوما مزيفا، و كذا الثقافة التي تحولت إلى مجموعة من السلع و القيم التجارية في كنف الحياة الغربية.

لا تصل نظرة أدورنو إلى حد طرح بدائل جديدة أو تكوين رؤية تصحيحية للواقع، بل فقط تكوين تصور سوداوي للحضارة الغربية، فهو لا يكتب هذا إلاّ لأنّه ينطق من زاوية متحيّزة إزاء تلك الثقافة بوصفه يهوديا.

ينتقل مفهوم الثقافة من مجرد فكرة ربط الثقافة بالمجتمع والنص إلى نقد فاحص له أدواته الإجرائية و مقولاته مع أستاذ جامعة "بيركلي بكاليفورنيا": ستيفن غرينبلات

Stephen Grenblatt الذي قام بدراسات جادة حول عصر النهضة و الدراما الشكسبيرية، و تحديدا في دراسته ذائعة الصيت "الرصاصات الخفية" Invisible Bullets.

أعلن ستيفن غرينبلات في هذه الدراسة و لأوّل مرة أننا علينا إذا أردنا قراءة نص ما، علينا أولا و أخيرا أن نستعيد القيم الثقافية التي امتصها النص الأدبي.

بهذه الطريقة أعلن غرينبلات فاعلية الثقافة حيث تتحول على إثرها الخطابات إلى حوادث ثقافية نسقية، و بالتالي ولادة المؤلف بعد أن قتله "**رولان بارت**" في نظريته الشهيرة "موت المؤلف" عام 1968 the death of the author.[8]

لكن الاعتقاد بعودة دور المؤلف في النص، يعيد النقد الثقافي إلى مرحلة ما قبل البنيوية، حيث يصبح للسياق حصة الأسد في توجيه المعنى وتشكيله، وهذا ما يجعل كل جهود ما بعد البنيوية تذهب أدراج الرياح بعد أن حققت إسهامات و نتائج مهمة في النظر إلى حقيقة النصوص.

كما أن الدعوة التي تبناها النقاد الثقافيون بتوجيه الاهتمام نحو الظواهر الاجتماعية و تحويلها إلى نصوص قابلة للقراءة مثل: اللباس، الأطعمة، الاتيكيت..الأغاني الشبابية.. تكرس الثقافة العامة على حساب ثقافة الانتلجنسيا وتجعل القراء في نفس المستوى من التلقي رغم اختلافهم الكلي في التفكير والمستوى...

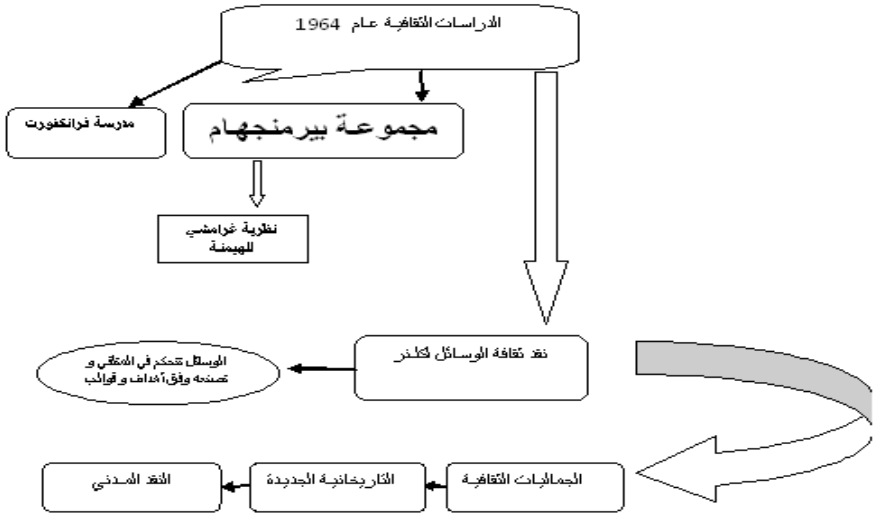

2- **موضوع النقد الثقافي:**

إذا كان "جاك دريدا" قد قدّم نقدا جوهريا للمقولات الفكرية التقليدية الغربية وسعى جاهدا لقهر التقسيم التقليدي بين الخطاب الفلسفي و الخطاب الجمالي، واستنتج أن الفكر الغربي يقوم على ثنائيات ضدية ترسّخت وصارت بمثابة صنم على الجميع عبادته مثل: العقل/العاطفة، العقل/الجسد، الذات/ الآخر، المشافهة/الكتابة، الرجل/المرأة، هذه الثنائيات التي تتأسس على ثنائية أشمل و أوسع هي: المركز/الهامش.

فهذا الفكر يمنح الامتياز و الفوقية للطرف الأول و يلقي بالدونية والثانوية على الطرف، هذا الانحياز يطلق عليه "دريدا" مصطلح "التمركز".

لذلك عمل دريدا على قلب هذا التمييز و أثبت خلال مشروعه أن هذه الثنائيات باطلة و موهومة.

انطلق النقد الثقافي كذلك من هذه الفكرة و اعتبر أن جميع الأنساق المترسخة في ذواتنا، هي أنساق غير بريئة، و هي قاهرة و غير عادلة –بالمرة– لذلك حوّل الاهتمام النقدي من النصوص المركزية في المؤسسة الثقافية إلى النصوص الهامشية.

ليس هذا فقط، بل طرح النقد الثقافي موضوعا جديدا هو التركيز على القبح في العمل الأدبي، بدل التركيز على مواطن الجمال فيه، لذلك طوّر "الغذامي"–بعد أن أفاد من ليتش– مشروعه النقدي واضعا هدفين:

أولا: تحرير مصطلح(الأدبي) و (الأدبية) من قيد التصور الرسمي المؤسساتي الذي حصر الأدب بالخطاب المقرر من قبله، و بناء على الموروث البلاغي و الجمالي.

ثانيا: الكشف عن عيوب الجمالي بما يفضي إلى ايجاد نظريات في القبحيات أي إيجاد عيوب الجمالي و علله.[9]

هذه الدعوة التي قادها النقاد الثقافيون–و على رأسهم عبد الله الغذامي– في العالم العربي بدت أنها دعوة لإلغاء المنجز النقدي الأدبي ككل، و إحلال النقد الثقافي مكانه، أو ربّما توهم هكذا الدعاة للحظة بعد أن سيطرت هذه النظرية على كتاباتهم.

لكن لو ندقق مليا سنجد أن ما حدث هو عمليةإبدال فقط لمصطلحات النقد و البلاغة بمصطلحات تؤمن بوجود نسق خفي يصنع المعنى و يشكله.

3- مقاربة نقدية في نظرية الغذامي:

لطالما غذّت الثقافة السياقات التي تصنع العرف فقد انبنت المؤسسة العربية على آلية يتم فيها تحديد المركزي و الهامشي بناء على تصور الذات للعالم و الآخر، هذه المركزيات العربية«تصاغ استنادا إلى نوع من التمثيل الذي تقدمه المرويات الثقافية الدينية و الأدبية، و التاريخية، و الجغرافية و الفلسفية، و الأنثروبولوجية إلى الذات المعتصمة بوهم النقاء الكامل و الآخر المدنس بالدونية الدائمة[10] »

فالتمركز هو نوع من التعلق بتصور مزدوج عن الذات و الآخر، تصور يقوم على التمايز و التراتب و التعالي، و يتشكل عبر الزمن بناء على ترادف متواصل و متماثل لمرويات تلوح فيها بوضوح صورة انتقيت بدقة لمواجهة ضغوط كثيرة[11].

فقراءة الواقع العربي تكشف بوضوح كيف مارست الذات الدفاع عن وجودها الرمزي فنظرتها لا تعرف البراءة و العفوية، و هي لا تنطق و لا تؤسس لأي خطاب خارج هذا النمط الأحادي من التفكير.

انطلق الغذامي في مشروعة من هذه الزاوية و اعتبر أن المؤسسة الثقافية و الدينية العربية أسست لذاتها من هذا المنظور، لذلك على الناقد الثقافي كشف تواطؤ المعرفة مع السلطة، ففي نظره أن الذهنية العربية تشبثت بمركزيات مهمة قادت تفكيرها. وقد أفرزت نظرة الغذامي نتائج مهمة أهمها:

1- الغرب

2- الذكورة

3- الدين

لقد بدا أن مشروع الغذامي كله يسير في ظل هذا الطرح، و عمل على استبدال مصطلحات النقد و البلاغة بما يتلاءم مع نظرته و منهجه، كالآتي:

- أبدل المجازالبلاغي ←— بالمجاز الكلي
- أبدل التورية البلاغية ←— بالتورية الثقافية

- أبدل الدلالة الضمنية ⟵ بالدلالة النسقية
- أبدل المؤلف المعهود ⟵ بالمؤلف النسقي
- أبدل الوظيفة الشعرية ⟵ بالوظيفة النسقية
- تمكن من نقد المؤسسة الدينية الإسلامية ممثلة في أهم أعلامها مثل: الشيخ النفزاوي، ابن القيم الجوزية، أبو حامد الغزالي، ...وكشف عيوب كتابتهم وما خفي منها من أنساق مضمرة.
- أثار الجدل حول كتب مهمة في الأدب العربي كانت تعتبر مصادر مهمة للدارس الأدبي، فحفز على التفكير في أهمية بعضها وهامشية أخرى، ليس بسبب عيب جمالي وإنما بسبب عيب نسقي.

وجهة نظر:

مهما كانت المزالق التي وقع فيها الغذامي بسبب حماسه لتسويق النقد الثقافي في المشهد العربي الراهن إلا أنها نظرة حركت الساكن وأنطقت المسكوت عنه، انها نظرة حفزتنا مرة أخرى على التفكير في ألف و ليلة و ليلة وفي كليلة و دمنة...

نجح الغدامي في إعادة قراءة أدونيس والمتنبي ونزار قباني بمنظور مختلف، كما نجح أيضا في إعادة صياغة المفاهيم الغربية وتشكيل نظرية عربية مهما اختلف الناس في جدواها.

إن فحص الوعي الراهن يشجعنا لإعادة النظر في كل ما علق بأذهاننا من مسلمات جاهزة ومعايير ثابتة ليتحول الاختلاف شريعة و عقيدة جديدة ليس من أجل ترسيخ القطيعة، بل من أجل خلق نموذج متفاعل وواعي أكثر بجوهر الحقيقة.

هوامش:

[1]– د/ ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4 ، 2005، ص: 305، 306.

[2]– عبد الله محمد الغذّامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافي العربيّة، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2001، ص: 16، 17.

[3]– المرجع نفسه، ص: 14، 15.

[4]– المرجع نفسه، ص:18.

[5]– المرجع نفسه، ص: 21.

[6]– د/ ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص: 360.

[7]– المرجع نفسه، ص: 361.

[8]– يوسف عليمات، النسق الثقافي "قراءة في أنساق الشعر العربي القديم"، هالم الكتب الحديث، الأردن، 2009، ص: 7.

[9]– رفيف رضا صيداوي، النقد الثقافي للغذّامي:
بين التنظير والممارسة في الموقع:
http://www.al- jazirah.com/culture/12032007/speuss24.htm

[10]– عبد الله ابراهيم، المطابقة و الاختلاف، (بحث في نقد المركزيات الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2004، ص: 17.

[11]– المرجع نفسه ، ص: 17.

المصادر والمراجع :

1- عبد الله ابراهيم، المطابقة و الاختلاف، (بحث في نقد المركزيات الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2004.

2- عبد الله محمد الغذّامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافي العربيّة، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2001.

3- د/ ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4 ، 2005.

4- يوسف عليمات، النسق الثقافي "قراءة في أنساق الشعر العربي القديم"، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2009.

المواقع الالكترونية:

1- http://www.al-jazirah.com/culture/12032007/speuss24.htm